الإيجاز بين الرُّمَّانيِّ والخطيبِ القزويني
" دراسة وموازنة "

أعدته

أ.د/ أماني محمد هاشم

أستاذ البلاغة والنقد

وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق

-جامعة الأزهر-

من ٢٧٥ إلى ٣٢٨

الإيجـاز بين الرُّمَّانِـيِّ والخطيبِ القزويني ، دراسـة موازنـة

أ.د/ أماني محمد هاشم عبد المجيد
قسم: البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر الشريف ،، الزقازيق ، مصر .
الإيميل الجامعي: amanymohamed.67@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الرماني (ت ٣٨٤ هـ) والخطيب القزويني (ت٧٣٩ هـ) علمان من أعلام البلاغة، لا يجهل فضلهما ومكانتهما من يمت إلى علم البلاغة بصلة ، كانا محبين للعلم ، واسعين الاطلاع متقنين لعلوم اللغة، وقد أَلَّف الرُّمَّانيُّ كتابه "النكت في إعجاز القرآن" وكان من أهم الكتب في الدراسات القرآنية وأكثرها اتصالاً بالبلاغة والبيان.

كما دوَّت شهرة الخطيب القزوينى في عصره وبعد عصره بصُنْعه تلخيصًا دقيقًا واضحًا للقسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦ هـ) وبعد أن فرغ الخطيب من تأليفه أحس بالحاجة إلى كتاب يشرح فيه بعض قضاياه ، ويضيف إليه زوائد من المفتاح ، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وغيرها مستكثرًا مِن الشواهد والأمثلة ، فألف كتاب الإيضاح .

وهذا البحث سيتناول –بمشيئة الله تعالى– الإيجاز عند كلٍّ منهما، ولعل أهميته تأتي من تجليته لمواضع الخلاف، وما ينبغي أن نكون عليه وفاءً بمقاييس البلاغة نفسها، في أسلوب سلس رصين .

والإيجاز مولود جديد ... قديم ... جديد في مقطعه ونهايته ، قديم في مطلعه وبدايته ... والقرآن الكريم يستثمر دائمًا وبرفقٍ أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يُمكن من المعاني ، وليس فيه كلمة إلا وهي مفتاحٌ لفائدةٍ جليلةٍ ، وليس فيه حَرْفُ إلا جاء لمعنى .

وقد جعلت البحث في مقدمة ، وتوطئة ، وثلاثة محاور ، وخاتمة. واعتمدت على مصادر كثيرة متنوعة ، سواء مصادر تاريخية أو مصادر بلاغية .

ولست أدعي للآراء التي عرضتها في هذا البحث العصمة من الخطأ، وإنما هي آراء تحتمل المناقشة والدرس .

الكلمات المفتاحية : الإيجاز ، الرماني ، الخطيب ، دراسة ، موازنة.

Briefing between Al-Rummani and Al-Khatib Al-Qazwini, a balanced study

Prof. Dr. Amani Mohamed Hashem Abdel Majeed
Department: Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls - Al-Azhar University, Zagazig, Egypt
University email amanymohamed.67@azhar.edu.eg

Research Summary:

Al-Rumani (d. 384 A.H.) and Al-Khatib Al-Qazwini (d.739A.H.) are two scholars of rhetoric, whose virtue and status are not ignorant of those who are related to the science of rhetoric They were knowledge-loving, well-read, and fluent in linguistic sciences. Al-Rummani.

wrote his book “An-Nukat fi Miracles of the Qur’an” and it was one of the most important books in Qur’anic studies and most closely related to rhetoric and eloquence The fame of al-Khatib al-Qazwini in his era and after his era resounded by making an accurate and clear summary of the third section of the book Miftah al-Ulum by al-Sakaki (d.626 AH). After al-Khatib finished writing it, he felt the need for a book that explains It contains some of his issues, and adds to it excesses of the key, evidence of miracles, secrets of rhetoric, and

others, abundantly with evidence and examples, so he wrote the book of clarification

This research will deal - God Almighty willing - with brevity in each of them, and perhaps its importance comes from its manifestation of the points of disagreement, and what we should be in fulfilling the standards of rhetoric itself, in a smooth and sober style.

Briefness is new born... old... new in its syllable and its end, ancient in its beginning and beginning... The Holy Qur'an always invests gently and gently as little utterance as possible in generating as many meanings as possible, and there is not a word in it that is the key to a great benefit, and there is not a letter in it that does not come to a meaning

The research has included an introduction, a preface, three axes, and a conclusion. It relied on many different sources, whether historical sources or rhetorical sources

I do not claim that the opinions presented in this research are infallible, but rather they are opinions that bear discussion and study.

Keywords: brevity, al-Rumani, al-Khatib, study, balance.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، قيُّوم السموات والأرضين، مدبِّر الخلائق أجمعين ، والصلاة والسلام على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

أما بعد...

فمن دواعي غبطتي وسروري أن وقع اختياري على موضوع (الإيجاز بين الرُّمَّانِيِّ (ت ٣٨٤ هـ) والخطيبِ القزويني (ت٧٣٩ هـ) ، دراسة وموازنة)، والإيجاز مولود جديد ... قديم ... جديد في مقطعه ونهاية، قديم في مطلعه وبدايته، والقرآن الكريم يستثمر دائمًا وبرفقٍ أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يُمكن من المعاني، وليس فيه كلمة إلا وهي مفتاحٌ لفائدةٍ جليلةٍ ، وليس فيه حَرْفُ إلا جاء لمعنى .

ولعل أهمية هذا البحث تأتي من تجليته لمواضع الخلاف في الإيجاز عند عالمين من أعلام البلاغة العربية، كانا محبين للعلم، واسعين الاطلاع متقنين لعلوم اللغة، حيث ألَّف الرُّمَّانيُّ كتابه "النكت في إعجاز القرآن" وهو من أهم الكتب في الدراسات القرآنية وأكثرها اتصالاً بالبلاغة والبيان وإعجاز القرآن، وهو من أعظم الكتب شأنًا وأشدها خطرًا ، وأبعدها أثرًا ، وكان الينبوع الفيَّاض الذي استقى منه كثير من كبار العلماء، وتزودوا منه في أبحاثهم البلاغية .

كما دوَّت شهرة الخطيب القزويني في عصره وبعد عصره بصُنْعه تلخيصًا دقيقًا واضحًا للقسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، وبعد أن فرغ الخطيب من تأليفه أحس بالحاجة إلى كتاب يشرح فيه بعض قضاياه، ويضيف إليه زوائد من المفتاح، ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة، وغيرهم مستكثرًا مِن الشواهد والأمثلة ،

فألف كتاب الإيضاح ، وسرعان ما رأينا من خلفوه يعكفون على تلخيصه واكبوا على درسه وحفظه فصار كأصله مهبط أنوار الأفكار، فكتبوا له شروحًا.

وهذا البحث سيتناول –بمشيئة الله تعالى– الإيجاز عند كلٍّ منهما، ولعل أهميته تأتي من تجليته لمواضع الخلاف، وما ينبغي أن نكون عليه وفاءً بمقاييس البلاغة نفسها، في أسلوب سلس رصين .

وقد جاء البحث في مقدمة ، وتوطئة ، ثلاثة محاور ، وخاتمة، ومصادر متنوعة.

ولست أدعي للآراء التي عرضتها في هذا البحث العصمة من الخطأ، وإنما هي آراء تحتمل المناقشة والدرس .

وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وله الحمد على نعمه، وبه التوفيق والعصمة .

أ.د/ أماني محمد هاشم عبد المجيد

توطـــــئة

أولاً : الرُّمَّانِيُّ (٢٩٦هـ – ٣٨٤ هـ).

هو : شيخ العربية ، الحَبْر[١] العماد ، الورَّاق ، الجامع ، الإخشيدي ، النحوي ، الواسطي ، الرُّمَّانِيُّ ، المعتزلي : " عَلِيُّ بن عيسى بن عَلِيّ بن عبد الله . وكنيته أبو الحسن ، الرُّمَّانِيُّ[٢] .

ولد ببغداد[٣] سنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة[٤] . ونشأ نشأة فقيرة ، واشتغل بالعلم ، واستعان على كسب قوته بالوِراقة ، اشتهر بالفطنة المبكرة ، والذكاء المتقد ، وهو في مقتبل العمر ، إذ استوعب نفائس العلوم بتفهم ودراسة ، وحذقَ آثار شيوخه العظام ، وهو فتى في الخامسة عشرة من عمره . كان محبًا للعلم ، واسع الإطلاع متقنًا للأدب

---

[١] بكسر الحاء أو فتحها : العالم ، أو الرجل الصالح . انظر اللسان مادة حبر ص ٢٩٠ ، ط دار الحديث .

[٢] بضم الراء وتشديد الميم ، نسبة إلى الرُّمَّان وبيعه ، أو إلى قصر الرمان ، وهو قصر بواسط . انظر ترجمته في تاريخ بغداد للبغدادي ١٢ / ١٦ ط دار الكتب العلمية ، وطبقات المفسرين للسيوطي ص ٨١ ، تحقيق على محمد عمر طه مؤسسة الأعلمي ، وطبقات النحاة لابن شهبة ٢/ ١٧٤ مخطوط بدار الكتب ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٢٢٩ تحقيق إحسان عياض ط دار صادر . وذكرت ألقابه في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٢٥٩ ، والإمتاع والمؤانسة والمقابسات ص ٥٧ ، الفهرست لابن النديم ص ٦٩ ، معجم البلدان ٣/ ٦٦ ، ٦٧، وتاج العروس والقاموس المحيط مادة : " رمن " و روضات الجنان ص ٤٨٠ .

[٣] ذكر في الأعلام أن أصله من سمرَّاء ٢/ ١٠٩ .

[٤] ذكر السيوطي أنه ولد سنة ست وسبعين ومائتين وتبعه الحموي ، انظر بغية الوعاة ٢/ ١٨٠ ، وإرشاد الأريب ١٤ / ٧٣ . وقد ذكر في تاريخ ولادته ووفاته غير ذلك .

وعلوم اللغة والنحو ، لذلك لقِّبَ بالنحوي المتكلم شيخ العربية ، وصاحب التصانيف ؛ لأنه كثير التصرف والتأليف ، من كبار النحاة ،أخذ عن الزجاج وابن السراج، ويعد إمامًا في العربية في طبقة الفارسي والسيرافي . ويقول عنه أبو حيان التوحيدي : " إنه عالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والمنطق " ، ولم يرَ مثله قط علمًا بالنحو ، وغزارة بالكلام ، وبصرًا بالمقالات ، واستخراجًا للعويص ، وإيضاحًا للمشكل ... وكان يمزج النحو بالمنطق حتى قال الفارسي (ت٣٩٥هـ) : إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء "[١] .

ولشدة مزج الرُّمَّانِيّ النحو بالمنطق استعصت كتاباته على كثير من الناس والعلماء ؛ لأنهم لم يعهدوا هذا المزج من قبل حتى في أشد الكتب غزارة ، ودقة ، وصعوبة . وهذا أبو حيان يقرر ذلك بقوله : " ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق ، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ، ومن بعدهما بدهر لم يعهد فيه شيء من ذلك " [٢]

والحق أن كتب الرماني النحوية ليست في متناول أيدينا حتى نستطيع أن نؤكد الأقوال التي سقناها ونؤيدها بالأمثلة التي تشهد على مزجه النحو بالمنطق ، وإنما نكتفي بما ننقله عن كتب التراجم ، وأقوال العلماء .

برع في علوم القرآن والتفسير وألف فيها ، ومن أهم الكتب التصاقًا بالبلاغة والبيان كتاب " النكت في إعجاز القرآن " ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

---

[١] انظر الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان ١ / ١٣٣ ط بيروت ، وبغية الوعاة ٢/ ١٨١ .

[٢] انظر بغية الوعاة ٢/ ١٨١ .

فهو من أعظم الكتب شأنًا ، وأبعدها أثرًا في تاريخ البلاغة العربية على مر العصور، وكان الينبوع الفياض الذي استقى منه كثير من كبار العلماء، وتزودوا منه في أبحاثهم البلاغية ، منهم ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) ، وابن سنان (ت٤٦٦هـ) ، والإمام عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧٤هـ) ، وابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ) ،والسيوطي (ت٩١١هـ) وغيرهم ، وسوف نذكر بمشيئة الله تعالى شواهد من تعليقاتهم كلٍ في موضعه.

ورسالة " النكت في إعجاز القرآن " تأخذ شكل جواب عن سؤال وُجِّه إليه عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون تطويل بالحجاج ، ويأخذ الرماني في الجواب قائلاً : (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ؛ والتحدي للكافة ؛ والصَّرفة ؛ والبلاغة ؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ؛ ونقض العادة ؛ وقياسه بكل معجزة) [١] . فجعل الدراسة في هذه الرسالة تقوم على إثبات الإعجاز للقرآن عن طريق البلاغة التي جعلها ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة.

فما كان في أعلاها فهو معجز ، وهو بلاغة القرآن . وما كان منها دون ذلك فهو ممكن ، كبلاغة البلغاء من الناس ،" وليست البلاغة إفهام المعنى ؛ لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والأخر عيي ؛ ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى؛ لأنه

---

[١] النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني ص ٧٥ ، تحقيق الدكتورين خلف الله وسلاَّم دار المعارف .

قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف . وإنما البلاغة " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ "[١].

فالبلاغة وإن كانت وجهًا واحدًا من وجوه الإعجاز إلا أنها تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة ، وبقية وجوه الإعجاز تمثل أربع صفحات فقط .

مما يرجح الظن بأن الرُّمَّانِي قد قصد من وضع هذه الرسالة أن يجعل البلاغة محور الحديث ، ومناط القول ، وليس القصد إلى الكلام عن بيان الإعجاز القرآني ، بل جعل الإعجاز مدخلاً ووسيلة لبلوغ الغاية التي يستهدفها – ونعني بها البلاغة وبيان أقسامها .

فكان عمدة في تعريفه للبلاغة بأنها " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ " [٢]. إذ أيقظ بها من جديد قضية اللفظ والمعنى ، وهي قضية لم تولد على يد الرُّمَّانِي ، وإنما كانت مجال أخذ ورد بين العلماء منذ بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) والذي أشاد بحلاوة اللفظ وحسن المعنى[٣]، وأبي عمرو الشيبانى ، والآمدي (ت٢٧٠هـ) ، أو من أشاد باللفظ دون المعنى ، كالجاحظ (ت٢٥٥هـ) الذي اعتبر المعاني مطروحة في الطريق وأن المعول في البلاغة على الألفاظ[٤]. ومن ثم اهتم رجال البلاغة باللفظ وفصاحته وسلامته من العيوب كالغرابة والوحشية والسوقية والابتذال ، وتنافر الحروف ،

---

[١] النكت ص ٧٦ .
[٢] المرجع السابق نفسه
[٣] البيان والتبيين ١ /١٣٦ .
[٤] الحيوان ٣ /١٣١ .

كما اهتموا بالألفاظ وتركيبها ، وخلو العبارة من التنافر بين أجزائها ، وغير ذلك مما هو معروف في فصاحة الألفاظ . لكن الرُّمَّانِي يرى كبشر بن المعتمر (ت٢١٠هـ) وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) أن البلاغة في اللفظ والمعنى معًا ، ولا يصح أن ينفصل أحدهما عن الأخر ؛ بل هما قرينان متلازمان تلازم الروح والجسد، ومن هنا قال ابن قتيبة: " أفضل أضرب الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه"[١] ولذلك فإن الرُّمَّانِي قد اعتنق هذا القول ، وقرر أن البلاغة " ليست في إفهام المعنى؛ لأنه يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ ، والأخر عيي ، ولا البلاغة أيضًا بتحقيق اللفظ على المعنى ؛ لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف . " [٢].

وبالرغم من اعتناق الرُّمَّانِي لهذا الرأي إلا أنه لم يؤيد أقواله بالأمثلة أو الشواهد الشعرية كما فعل ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) وغيره ممن تصدى لهذه القضية .

ولعلنا نوفي للرماني حقه في ذلك لأنه اكتفي بالإيجاز قصدًا في هذه القضية وتعمد إغفال الشواهد والأمثلة فيما يجري على هامش الألوان البلاغية حتى يحقق لصاحب السؤال رغبته حين سأله ، فأجابه بدون تطويل في الحجاج [٣] .وإذا كان الرماني قد التزم الإيجاز في هذه القضية فقد أفاض الحديث عن أقسام البلاغة العشرة من إيجاز ، وتشبيه ، واستعارة ، وتلاؤم ، وفواصل ، وتجانس ، وتصريف وتضمين ، ومبالغة ، وحسن بيان.

---

[١] الشعر والشعراء ص ٦٤ .

[٢] النكت ٦٩ .

[٣] المرجع السابق بتصرف .

وواضح أن الرماني لم يلتزم الدقة في هذا القول حيث إن البلاغة تشمل ألوانًا أخرى لم ينص عليها الرماني ، ولعله ذكر ذلك على سبيل المثال لا الحصر . ويهمنا من هذه الرسالة وهذه الأقسام حديثه عن الإيجاز ، وسوف نتناوله بالتفصيل بمشيئة الله تعالى.

وتذكر المصادر أن له ما يقرب من مائة كتاب منها : التفسير الكبير[١]، والجامع في علوم القرآن[٢]، وألفات القرآن ، وشرح معاني القرآن للزجاج ، وشرح كتاب المدخل والمقتضب للمبرد ، والألفاظ المترادفة ..... إلى غير ذلك مما ذكرته كتب المصادر ، وما يهمنا هو كتاب النكت في إعجاز القرآن ؛ لأنه الكتاب الوحيد الذي يتصل بالبلاغة اتصالاً وثيقًا .

وهكذا عاش الرماني حياة حافلة بالبحث والتنقيب بالعلم والتعلم ، وتوفي رحمه الله عن عمر يناهز ثماني وثمانين سنة . ليلة الأحد الحادي عشر من جمادي الأول سنة أربع وثمانين وثلاثمائة هجرية على الصحيح ، والرابعة والعشرين من يونيو سنة أربع وتسعين وتسعمائة ميلادية . ودفن بالشوينزية وهي مقبرة بالجانب الغربي من بغداد ، حيث دفن أبو على الفارسي (ت٣٩٥هـ)، ولم نتوصل في كتب التراجم ما يشير إلى خروجه من بغداد على سبيل العلم فولد ودفن بها [٣]. رحمه الله وأدخله فسيح جناته .

---

[١] راجع في كتبه بروكلمان الملحق ١٧٥/١ .

[٢] ويسمى أحيانًا باسم الجامع الكبير في تفسير القرآن ، ويوجد بدار الكتب المصرية " التيمورية " تفسير جزء عمَّ .

[٣] انظر العبر في خبر من اعتبر ٢٥/٣ ، وشذرات الذهب ١٠٩/٢ ، بخلاف ما ذكر عند كل من د/ شوقي ضيف في البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣ ، حيث ذكر وفاته سنة ٣٨٦ ، وما ذكره ابن زهرة في المعجزة الكبرى أنه توفي سنة ٣٨٢ ، ولا أعلم من أين أتيا بهذا التاريخ .

ثانيًا : الخطيب القزوينى (٦٦٦هـ - ٧٣٩ هـ) .

هو : الشيخ الإمام العالم العلاَّمة خطيب الخطباء ، مفتي المسلمين ، قاضي القضاة . محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الحسن بن عَلِيٌّ بن إبراهيم بن عَلِيُّ بن أحمد بن دلف بن أبي دلف العجلي ، القزويني ثم الدمشقي الشافعي . ولقبه جلال الدين [١].

ولد بالموصل في السنة السادسة والستين وستمائة من الهجرة نشأ في أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان لها - ولا شك - أثرها في حياته وتفكيره . ولما شبَّ تفقه على يد أبيه وعلماء وطنه . ونسبته إلى قزوين ترجع إلى أن بعض أجداده سكنها ، وهو عربي الأصل إذ يعود نسبه إلى دُلف العجلى قائد المأمون ، وكان شاعرًا بليغًا وجوادًا كريمًا . كان فهمًا ذكيًا فصيحًا مفوهًا ، لذلك كثر عطاؤه العلمي في مجالات شتى ؛ وهو أديب وخطيب . برع في الخطابة حتى عرف بالخطيب ، وولى الخطابة بجامع دمشق ، وهذه منزلة لا يرقى إليها إلا من حباه الله بسطة في العلم ، وتمكنًا من زمام البيان . وقد ولي وهو دون العشرين قضاء ناحية من بلاد الروم ، ثم صار قاضيًا لبلاد الشام . فلمع اسمه ، وطلبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة ، فقدم عليه سنة ٧٢٤ ، وخطب بجامع القلعة بين يديه ، فأعجب به ، ثم ولاَّه قضاء الديار المصرية سنة ٧٢٧ فنبه ذكره وطار صيته ، وصارت له منزلة عند السلطان لم يصل إليها غيره من القضاة .

له في البلاغة اليد الطولى ، والقدح المعلى . وتدل مؤلفاته في البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة ، وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات في البلاغة **وفي مقدمتها :**

---

[١] انظر ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي ١٥٦/١ . وشذرات الذهب ٦/ ١٢٣ . والدرر الكامنة في أعيان الثامنة ٣/٤ . والنجوم الزاهرة ٥/ ٣١ . وطبقات الشافعية لابن السبكي ٢٣٨/٥.

" أسرار البلاغة و " دلائل الإعجاز " لعبد القاهر . و " المفتاح " للسكاكي . ثم جمع ما اطَّلع عليه وما اهتدى إليه بعقله ، فأخرج لنا كتابه " تلخيص المفتاح " ، وهو مختصر صغير للمفتاح في البلاغة .

وقد دوَّت شهرة الخطيب في عصره وبعد عصره بصُنْعه تلخيصًا دقيقًا واضحًا من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ) ، بحيث غطَّى على بدر الدين ابن مالك (ت٦٨٦هـ) وأمثاله ممن لخَّصوا قبله وبعده ، إذ كان حسن العبارة ، واضح الدلالة ، دقيق الإشارة . وعمد إلى كل ما في المفتاح من تعقيد فأخلى تلخيصه منه إلا قليلاً ، وناقش السكاكي في غير موضع ، وطرح بعض تعريفاته الملتوية ، ووضع مكانها تعريفات أكثر وضوحًا ، وساعده على ذلك عكفه على كتابي الإمام عبد القاهر ، وكتاب الكشاف للزمخشري ، مستنيرًا بهم جميعًا في تصنيف تلخيصه ، وأدلى ببعض الآراء فيه **، فقال في مقدمة كتابه التلخيص :**

(كان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنَّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسفُ السكَّاكيُّ ؛ أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعًا ، لكونه أحسنها ترتيبًا ، وأتمها تحريرًا ، وأكثرها للأصول جمعًا ؛ ولكن كان غير مَصُون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلاً للاختصار ، مفتقرًا إلى الإيضاح والتجريد ، ألَّفْتُ مُخْتصرًا يتضمن ما فيه من قواعد ، ويشتمل على ما يُحتاج إليه من الأمثلةِ والشواهد ، ولم آل [١] جهدًا في تحقيقهِ وتهذيبه ، ورَتَّبْتُهُ ترتِيبًا أقربَ تناوُلاً من ترتيبه ، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبًا لتعاطيه ، وطلبًا لتسهيل فَهْمِهِ على طالبيه ، وأضَفْتُ إلى ذلك فوائِدَ عَثَرْتُ في بعض كتب القوم عليها ، وزوائِدَ لم أظْفَرْ في كلام أحدٍ بالتصريح بها ولا الإشارةِ إليها ، سمّيتُه "تلخيص المفتاح")[٢]

---

[١] الألو : التقصير

[٢] انظر مقدمة كتابه تلخيص المفتاح .

فـ " تلخيص المفتاح " لخص فيه ذلك السفر القيِّم وقدم فيه وأخَّر ، وحذف واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون .

ومن العجيب أن يسمي كتابه بهذا الاسم ، وهو ليس بالتلخيص له وحده بل أشبه بأن يكون تلخيصًا لكتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر (ت٤٧٤هـ) ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ)... وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح في مقدمته[١] . ويري المرحوم المراغي " أنه كان من الأمانة العلمية ألا يغمض الخطيب الشيخ عبد القاهر وابن سنان حقهما " [٢]

ويعلق على ذلك دكتور عبد المنعم خفاجي في تحقيقه لكتاب الإيضاح بقوله : (وقد يكون في هذا الرأي لون من المبالغة ، فمتن التلخيص ليس تلخيصًا للأسرار والدلائل وسر الفصاحة في قليل ولا كثير ، وإنما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح ، وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه إلى المفتاح نفسه ، الذي اعتمد فيه السكاكي على عبد القاهر إلى حد بعيد ، وقد يستساغ ذلك في الإيضاح لا في "تلخيص المفتاح") [٣].

والحق أن أسلوب الخطيب في هذا الكتاب كان أوضح من أسلوب السكاكي إلا أنه لم يسلم من النقد ؛ لأنه مال إلى الأسلوب التقريري الذي لا يعني إلا جمع القواعد في أوجز لفظ وأقصر عبارة ، حتى أسرف في الإيجاز إسراف عبد القاهر في الإطناب ، مما جعل كتاب التلخيص متنًا محتاجًا إلى شروح ، إلا أن هذا العيب كان موضع تقدير

---

[١] بحوث وآراء في علوم البلاغة للاستاد المرحوم أحمد المراغي ص ٦٢ ، ١٣٧ .

[٢] انظر مقدمة تاريخ البلاغة للمراغي ص ٣٤ .

[٣] – انظر مقدمة الإيضاح للدكتور عبد المنعم خفاجي ص ١٢ .

المتأخرين وإعجابهم فوضعوا له الشروح والحواشى والتقارير حتى فاقت الحصر ، **ومن هذه الشروح :**

١- المختصر للسعد (ت٧٩١هـ) .

٢- المطول له أيضًا .

٣- عروس الأفراح للسبكي (ت ٧٧٣ هـ) .

٤- الأطول لعصام الدين إبراهيم بن عربشاة الإسفراييني (ت ٩٤٥ هـ) .

٥- وشرحه حديثًا الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي .

وبلغ شغف العلماء بالتلخيص حدًا جعل بعضهم يصوغه نظمًا ، فقد نظمه السيوطي (ت٩١١هـ) ، وسمي هذا النظم عقود الجمان ، وشرحه بكتاب سماه شرح عقود الجمان ، ونظمه أيضًا عبد الرحمن بن محمد بن عامر الأخضري (المتوفى في أواخر القرن العاشر الهجري) سماه " الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون .

ثم لم يكد الخطيب القزويني يفرغ من عمل هذا التلخيص حتى أحسَّ الحاجة إلى كتاب ثان يبسط فيه بعض قضاياه ويفسر بعض جمله وعباراته ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل والكشاف وغير هذه المؤلفات في بحوثه ودراساته فيه مستكثرًا من الأمثلة والشواهد . " ففيه عرض لعلوم البلاغة بعبارة واضحة وأسلوب أدبي فيه روح من أسلوب الإمام عبد القاهر الذي جمع بين الرصانة والتحقيق العلمي" [١].

غير أنه لم يعمد إلى الطريقة التي كانت مألوفة في عصره ، وهي صُنع الشروح على التلخيصات والمتون ، بل عَمَدَ إلى عَرْض موضوعاته ثانية في كتاب مطِّول مضيفًا إليه زوائد من المفتاح والدلائل .

---

[١] تاريخ علوم البلاغة ص ٣٤ بتصرف .

وفي ذلك يقول في فاتحته : (هذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها ، ترجمته بـ " الإيضاح " وجعلتُه على ترتيب مختصري الذي سميته " تلخيص المفتاح " وبسطت فيه القول ليكون كالشَّرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصَّلتُ معانيه المجملة ، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه " مفتاح العلوم " ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – في كتابيه: دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما فاستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذَّبتها ورتبتها حتى استقرَّ كل شيء منها في محله ، وأضفت إلى ذلك ما أدَّى إليه فكري ، ولم أجده لغيري فجاء بحمد الله جامعًا لأشتات هذا العلم)[١] .

ويعتبر كتاب الإيضاح وسطًا بين الإيجاز والإطناب مع شيء من التهذيب فيه . ومن الملاحظ أنه على الرُّغم من كثرة نقده فيه إلا أننا نجده أحيانًا يفصل هذا النقد ،، وأحيانًا يكتفي بالإشارة والرمز مثل قوله : " وفيه نظر " . وعلى ذلك فالإيضاح ليس فيه دائمًا زيادة توضيح، وبسط لما في التلخيص – كما هو مشهور– وخير دليل على ذلك أنه لا يوضح هذا النظر ، وقد يؤدي هذا إلى أن يذهب شُرَّاحه في توضيح هذا النظر مذاهب شتى ، ولعله كان يعتبر هذا النظر واضحًا لا يحتاج إلى توضيح .

وعلى كل فهذا الكتاب عمل جليل في البلاغة سواء في ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه، أم في استيعابه واستقصائه وتحليله، أم في جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع . أم في أسلوبه الأدبي وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية، وهو أهم كتاب دُرِسَ في

---

[١] مقدمة الإيضاح ص ١٦ تحقيق د/ عبد المنعم خفاجي .

البلاغة في العصر الحاضر [١]. إلا أن هذا الكتاب لم يرزق بالاهتمام الذي وجده كتابه التلخيص الذي شغف به عشاق المتون .

بينما تأَبَّى كتاب الإيضاح وطريقته السابقة على المتأخرين من علماء البلاغة فلم يضعوا عليه تلك الشروح والحواشي والتقريرات مثل ما صنعوا بكتاب التلخيص اللهم إلا شرحًا ضعيفًا للأقسراني لا يزال مخطوطًا بدار الكتب المصرية ، ويقول عنه عبد المتعال الصعيدي : " من الخير أن يبقى مخطوطًا فيه " [٢].

لهذا نجد أن قارئ الإيضاح يحتاج أحيانًا إلى الرجوع إلى ما كتب حول التلخيص للاستعانة به على فهم ما غمض منه ، ولعل هذا هو الذي اضطر بعض أساتذتنا إلى وضع شروح وتعليقات على كتاب الإيضاح منهم : الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، مؤلف كتاب بغية الإيضاح ، والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، الذي وضع شرحًا للإيضاح أيضًا وآخر مختصرًا أقلَّ منه .

وهكذا عاش الخطيب حياة حافلة بالبحث والتنقيب ، بعد أن أمضى ثلاث وسبعون عامًا ، وطلب بآخر أيامه أن يعود إلى قضاء دمشق ليكون قريبًا من أولاده ، وأجيب له طلبه غير أن المنية لم تلبث أن عاجلته فتوفي سنة ٧٣٩ للهجرة [٣] . رحمه الله وأدخله فسيح جناته .

---

[١] المرجع السابق ص ١٣ بتصرف

[٢] انظر مقدمة الإيضاح ١٦ .

[٣] بغية الوعاة ١٥٦/١ ، وجميع كتب التراجم

المحور الأول
تحديد مفهوم الإيجـــــاز

المحور الأول : تحديد مفهوم الإيجاز

١- تحديد المفهوم :

الإيجاز في اللغة : الاختصار ، وأوجزت الكلام : قَصَرْتهُ ، وفي حديث جرير قال له ﷺ : إذا قُلتَ فأوجز ، أي أسرع واقتصر . وأوجز القول والعطاء : قللَّه . وكلام وجيز : أي خفيف مقتصر[١] .

وقيل وجز الكلام يجيزه وجزًا ووجوزًا : قصره وقلله فهو واجز . ووجز الكلام يوجز وجزًا ووجازة : قصر وقلَّ فهو وجيز . وأوجز كلامه : وفىَّ كلامه أي : قصره واختصره[٢].

فالإيجاز هو التقصير والاختصار، ويقال أوجز في كلامه إذا اقتصره ، وكلام وجيز أي قصير . والاختصار في الكلام : أن تدع الفضول وتَسْتَوْجِزَ الذي يأتي على المعنى ، ويقال الاختصار أيضًا لحذف الفضول من كل شيء .

وقيل: الاختصار خاص بحذف الجمل فقط ، بخلاف الإيجاز ، وقال الخطيب : وليس ذلك بشيء [٣] .

واللغة لم تفرّق بين الإيجاز والاختصار والتقصير والتقليل .

الإيجاز في الاصطلاح : عدم التفرقة في اللغة جعلت علماء البلاغة يعتمدون على هذا المفهوم اللغوي في الاصطلاح فقالوا هو : " **أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط** " [٤]. أو هو " جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع

---

[١] – انظر اللسان ٢٢٤/٩ والقاموس المحيط ص ٦٧٩

[٢] انظر المعجم الوجيز ص ٦٦١ .

[٣] – انظر اللسان ١١١/٣ انظر الإيضاح ٣ / ١٨٠ .

[٤] – الإيضاح ص ٢٨١ .

الإبانة والإفصاح " [١]. أو هو " اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل " . أو هو " التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف [٢] واف بالمراد لفائدة " [٣].

فالإيجاز عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ، ليسهل تعلقها بالذهن ، وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة . وتحديد الإيجاز في الاصطلاح بهذا المفهوم اعتمادًا على التحديد اللغوي له ، المبني على التقصير والاختصار .

٢- بلاغة الإيجاز :

البليغ هو الذي يعرف مقتضيات الأحوال ، ويقف على نفسيات قرائه ومستمعيه ، ويضع كلامه موضعه ، ويصيب به هدفه ، فيوجز في مقام الإيجاز ،" فالبلاغة ما هي إلا إجاعة اللفظ وإشباع المعنى " [٤].

فالإيجاز في اللغة العربية أصل وروح وطبع ؛ لأنها لغة أمة صافية الذهن ، دقيقة الحس ، سريعة الفهم ، تشعر بقوة ، وتعبِّر بقوة ، وتفهم بقوة ، والبلاغة الإيجاز ، والإيجاز امتلاء في اللفظ ، وقوة الحبك ، وشدة في التماسك [٥] . فالوجازة بإجماع الرأي هي حد البلاغة من حيث الاعتماد على التركيز ، والاقتصاد على الجوهر ، والتعبير

---

[١] – البلاغة الواضحة ص ٢٤٢ .

[٢] – أي : متعارف أوساط الناس .

[٣] – والفائدة : كون المأتي به هو المطابق للحال ولا مقتضى للعدول عنه ، انظر علوم البلاغة للمراغى ص ٢٢٦ .

[٤] – البيان والتبيين ١/ ٩٦ .

[٥] – دفاع عن البلاغة ص ٩٠ .

بالكلمة الجامعة ، والاكتفاء باللمحة الدالة . وذلك لأن العربي تكفيه الإشارة وتغنيه اللمحة ، وغير العربي يحتاج إلى الإطالة وإشباع القول [١].

وملاك الإيجاز غزارة المعاني ووضوحها في الذهن ، وطواعية الألفاظ ومرونتها في اللسان . وسبب حسنه ؛ أنه يدل على التمكن في الفصاحة ولهذا قال ﷺ : " أوتيت جوامع الكلم " ، كما كان – عليه السلام – يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به ، فقد تكلم عن رجل فأطال ، فقال له : " كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاي ، وأسناني . فقال له عليه السلام : إن الله يكره الانبعاق [٢] في الكلام . فنضَّر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته " [٣]. وروى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين [٤]: (وقيل لإياس : لا عيب فيك إلا إنك تطيل ، قال : أخيرًا تسمعون أم شرًا ؟ قال : خيرًا ، . قال : فالزيادة في الخير خير) . ثم علق الجاحظ على ذلك فقال : " وليس الأمر كما قال إياس ؛ فإن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فَضَل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذاك الفاضلْ هو الهذَر وهو الخطل ، وهو الإسهاب الذي سمعتُ الحكماء يعيبونه " [٥] .

وبذلك يتضح أن للإيجاز مقامات تقتضيه ، ومواضع تلائمه ، كالحكم والأمثال . وثمة أقوال للنقاد والبلاغيين القدامى في ضرورة مراعاة المقام ، ومن ذلك قول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في معرض حديثه عن الإيجاز : " وهذا ليس بمحمود في كل موضع ولا

---

[١] – المرجع السابق نفسه .

[٢] – الانبعاق في الكلام : الاندفاع فيه

[٣] – انظر الحيوان للجاحظ ٩٣/١ .

[٤] – البيان والتبيين ٩٩/١ تحقيق هارون .

[٥] – البيان والتبيين ٩٩/١ تحقيق هارون .

بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، ولو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لزاده الله – سبحانه – في القرآن ، ولم يفعل الله سبحانه ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للإفهام " [١].

فمعني هذا أنه لا يقصد بالإيجاز قلة اللفظ فحسب ، وإنما يجب مع ذلك أن يكون المعنى وافيًا كاملاً ، مناسبًا لمقتضى الحال سواء كان الإيجاز من غير حذف وهو ما يعرف بإيجاز القِصَر ، أو كان بحذف شيء من التعبير .

ويذكر ابن سنان (ت٤٦٦هـ) أن " الأصل في مدح الإيجاز والاختصار في الكلام أن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها ، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى التعبير عنها بالكلام ، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعانى التي هي مقصودة ، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر ، فلا بد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكًا إلى المقصد " [٢].

هذا ما ذكره دكتور بدوى طبانة بقوله [٣]: " وقريب من هذا القول عبارة جننج Ginning التي تنص على أن بلاغة الإيجاز راجعة إلى أن أول دافع لإثارة الشعور هو الإسراع إلى نقطة الفكرة بأقل ما يمكن من الكلام وللوصول إلى هذا يجب أن يوجه الهجوم المركزي إلى الألفاظ الرمزية بفكرة جعلها على أقصى ما يمكن من الخفة والسرعة وعدم الطول " .

---

[١] – أدب الكاتب ص ١٣ .

[٢] – سر الفصاحة تحقيق عبد المتعال الصعيدي ص ٢٠٦ .

[٣] – انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي د/ بدوى طبانة ص ٣٠٢ .

وهذا المعنى كان موجودًا قديمًا حينما قال الأعرابي عندما سئل عن البلاغة : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز في غير عجز ، والإطناب في غير خطل ، وسأل معاوية (ت٦٠هـ) صحار بن عياش العبدي (ت٤٠هـ) ، ما تعدون البلاغة فيكم ؟ فقال : الإيجاز ، قال معاوية : وما الإيجاز ؟ فأجاب : أن تجيب فلا تبطيء ، وتقول فلا تخطيء " [١].

وعلى ذلك فدواعي الإيجاز كثيرة منها : الاختصار ، وتسهيل الحفظ ، وتقريب الفهم ، وضيق المقام ، وإخفاء الأمر على غير السامع ، والضجر والسآمة ، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير .

" والمزية الظاهرة للإيجاز على الإطناب أنه يزيد في دلالة الكلام من طريق الإيحاء ؛ ذلك لأنه ينزل على أطراف المعاني ظِلالاً خفية ، يشغل بها الذهن ، ويعمل فيها الخيال ... " [٢].

---

[١] – البيان والتبيين ١/ ٩٦ .

[٢] – دفاع عن البلاغة ص ٩٨ .

المحور الثاني
نشأة الايجاز وتطوره

المحور الثانى : نشأة الايجاز وتطوره

نشأة الإيجاز وتطوره :

من المعروف أن العرب قد نظرت إلى الإيجاز بوصفه قمة البلاغة ، وأساس التركيب الأدبي . فالإيجاز معروف لدى العلماء و النقاد منذ بدء نشأة مسائل البلاغة العربية وتكوينها .

فقد أشار إلى موضعه كل من سيبويه (ت ١٨٠هـ) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ) حتى جاء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) و عرفه بقوله : " لو أن قائلاً قال لبعضنا ما الإيجاز ؟ لظننت أنه يقول : الاختصار [١].

والإيجاز أو الاختصار عنده ليس يعني به قلة الكلمات وعدد الحروف ، بل لابد أن يكون مطابقًا لمقتضى الحال ، و أن يكون السامع على علم به . فالمراد مساواتها لمعانيها دون زيادة فيقول : (والإيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتي عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر مالا يكون سببًا لإغلاقه ، ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره ، فما فضل عن المقدار فهو الخطل .) [٢]. فالعبرة عنده بالمواقف والمقامات [٣].

---

[١] – انظر الحيوان للجاحظ ٩٠/١ ، تحقيق هارون .

[٢] – المرجع السابق ٩١،٩٠/١ .

[٣]– انظر البيان القرآني عند الجاحظ ص ١٠٩ ، ا.د/ هاشم محمد هاشم .

وكان ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) تعرَّض للإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف ، وإيجاز قِصَر . أما إيجاز القِصَر : فقد تعرض له في صدر كتابه " تأويل مشكل القرآن " من غير تسمية عندما وصف " النظم القرآني " ، بأنه جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه– وسماه الاختصار– وذكر أمثلة من القرآن الكريم، ومن كلام العرب [١].

أما إيجاز الحذف فقد فتح له بابًا بعنوان " باب الحذف والاختصار " حشد فيه كثيرًا من الأمثلة تناولت حذف الكلمتين والجملة ، وحذف الحرف والاسم والفعل ، وكانت هذه الأمثلة المدد الذي لا ينضب لمن أتى بعده من البلاغيين والنقاد .

ويشترط ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) و الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) و وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) لإيجاز الحذف أن يكون معلومًا لدى السامع ، وألا يخل الحذف بالمعنى المراد ، وأن يكون في الكلام ما يدل عليه ، ثم يرى ابن قتيبة : " أن ظاهرة الحذف من مذاهب العرب في فن القول ، ومن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ، ومن مذاهبهم أيضًا التكرار ؛ لإرادة التوكيد والإفهام ، ولأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون ، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاده في المقام على فن واحد " [٢].

---

[١] – انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٧ تحقيق الأستاذ صقر .

[٢] – المرجع السابق ص ٨٢ .

وفي القرن الرابع الهجري تناوله العالم الفذ علي بن عيس الرُّمَّانيُّ (ت ٣٨٦ هـ) في رسالته " النكت في إعجاز القرآن " [١] وقفز بدراسته قفزةً عالية قي سماء البلاغة العربية. وهذا هو موضوع بحثنا . وسنتناوله بالتفصيل بمشيئة الله تعالى .

ثم جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) وتعمَّق في فَهم أسرار الإيجاز بنوعيه ، وذلك في كتابه القيِّم " دلائل الإعجاز ".

ثم جاء ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ) وذكر أن الإيجاز هو حذف زيادات الألفاظ ، وهو نوع من الكلام شريف ، لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة . والإيجاز عنده يختص بالمعاني لا بالألفاظ ، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ورب لفظ كثير يدل على معنىً قليل . ومثل لهذا بالجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها [٢].

ثم جاء الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) بكتابيه من بعدهم فأفاد وفسّر ، ولنا ووقفة تفصيلية لأنه محط دراستنا بمشيئة الرحمن .

ثم تناوله البلاغيون بعد ذلك ، محافظين تارة مقصرين أخرى . إلى يومنا هذا وأظهروا " أن الإيجاز من طبيعة الشعوب السامية من حيث إن : لغات هذه الشعوب تعتمد على الإجمال والتركيز في الأداء ، والتعبير بالكلمة الجامعة ، والاكتفاء باللمحة الدالة في

---

[١] – انظر النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٥ : ٨٠ .

[٢] – انظر المثل السائر القسم الثاني ص ٢٥٥ .

مقابل لغات الشعوب الآرية التي تعتمد على التفصيل والفروع والاستطراد والميل إلى الشرح . ولم تعرف العربية التطويل والتفصيل إلا بعد اتصالها بالآرية في العراق والأندلس . وإن كان القرآن الكريم قد مهد من قبل للإطناب وجعل الناس يقدرون أثره في تقرير المعاني واتضاحها " [١].

ومنهم من نظر إلى الإيجاز نظرة جديدة وعميقة ، كالدكتور محمد عبد الله دراز فقال : " إن القرآن الكريم كله إيجاز ، وتلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازًا كله لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ." [٢].

وقال أيضًا : " لما كان هذا اصطلاحًا جديدًا نخالف به مصطلح القوم . لم نر بدًا من إيضاح سبب المخالفة : قسَّم علماء البلاغة الكلام إلى" مساوٍ " و"موجزٍ" و" مطنب " ، وعرفوا الإيجاز بأنه : أداء المعنى بلفظ ناقص عنه واف به ، والمساواة : بأنها أداء المعنى بلفظ على قدره ، والإطناب : بأنه أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة ....." .

ثم أورد الأمثلة وقام بتحليلها ثم قال : " لهذا كله رأينا أن نضع التقسيم وضعًا آخر نَردُّ به الفضيلة إلى نصابها من الحد الوسط : وذلك بجعل المقياس هو المقدار الذي يؤدي به المعنى بأكمله ، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال

---

[١] – دفاع عن البلاغة للزيات ص ٨٩: ٩٠ .

[٢] – انظر النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز ص ١٢٧ .

وتفصيل ، بغير إجحاف و لا إسراف ... ، فما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن... ، فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضوع ولا يسهل أداء تلك القاعدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب ... ، والكلام القصير إن وفىَّ بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة في الحال كان هو التوسط المطلوب ؛ وإلا كان بترًا أو تقصيرًا معيبًا . وليس الإيجاز مقصورًا على جانب الإجمال كما زعموا حتى بنوا عليه ما بنوا ... [١] .

وأنا أتفق معه فيما يقوله : بأن المقام هو الذي يحدد المقال ، ولابد من مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وإن خالف المقال المقام فسد المعنى ، وخرج عن بلاغته .

فالقيمة الفنية للإيجاز تتعين في أن يمد الإيجاز الأسلوب بالإيحاء الفني ، وبإثارة خيال المتلقي ، وتحريك ذهنه فهو يزيد من دلالة الكلام من طريق الإيحاء ، لأنه يترك لأطراف المعاني ظلالاً خفية يشتغل بها الذهن ، ويعمل فيها الخيال ، حتى تبرز وتتلون وتتسع ثم تتشعب إلى معان أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير والتأويل .

وكل ذلك لا يأتي إلا بمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فالحال هو الذي يحدد أنواع الكلام بجمله ، ولكلٍ بلاغته في موطنه ، وكما أظهر القرآن الكريم بلاغة الإيجاز أظهر أيضًا بلاغة الإطناب ، وكلاً منهما له موضعه الذي لا يقوم أحدهما فيه مكان الآخر ، وإلا أدَّى ذلك إلى الإخلال بالمعنى .

---

[١] – انظر هامش المرجع السابق ص١٢٨ :١٣٠ .

وأختلف معه بأن البلاغيين لم يقصدوا بالإيجاز تقليل الألفاظ فقط أو الإجمال المخل بالمعنى ، ولكن الإيجاز له مواطنه وله قواعده وأصوله ، والعرب تعرف الإيجاز والإطناب والمساواة . والقرآن الكريم جاء بلغتهم وبجميع ما تحويه من ضروب وعلوم وفنون ليتمَّ به التحدي .

فعندما قال رب العزة سبحانه ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى** ﴾ [١]. في غير النظم القرآني كان يكفي جواب سيدنا موسى – عليه السلام – أن يقول : عصاي لا غير ، ولم يذكر بعض وظائف العصا التي صنعت من أجلها ، ولكنه عندما أراد أن يسترسل في الحديث مع من يحب ويأنس ويتلذذ بالحوار معه ، أطال الحوار بذكر وظائف هذه العصا ، وهذه الإطالة محببة إلى نفسه ونفس كل مؤمن يتمنى أن ينال هذه المنزلة والمكانة العالية التي تسمو في أعلى مراتبها ، وإن قال : هي عصاي ، فقد أجاب وأوجز ، ولكن اعتمل في نفسه إيحاءات وخيال ، فلن يرك على أطراف الألفاظ معان خفية يشتغل بها قلبه ولكنه أشغل بها لسانه تلذذًا وحبًا فيمن يخاطبه .

ومن هنا لو نظرنا إلى تعريف الإيجاز كمصطلح عند البلاغيين سيوافق ما ذكرناه ، أما لو تحدثنا على أن معاني القرآن لا حصر لها إلى يوم الدين ، والقرآن الكريم محدود بألفاظه فجدير بنا أن نقول على هذا المعنى أن القرآن الكريم كله إيجاز لأنه معجز لكل زمان ومكان . ولعل هذا هو ما أراد أن يقوله دكتور محمد دراز . والله أعلم .

---

[١] – سورة طه ، الآيات ١٧ ،١٨ .

والقرآن كما قلنا نزل بلغة العرب " فإن العربي الذي كان كثير الارتحال في الصحراء كان عرضة في الكثير الغالب إلى الظمأ القاتل مما يدفعه إلى السعي الحثيث إلى نبع صاف في منعطف الوادي يروى غلته وينقع ظمأه ، فتعود من أجل ذلك القصد إلى الهدف في أوجز لفظ ومن أقصر طريق " [١]. وفي " أن الأمية في الجاهلية التي تستلزم الاعتماد على الذاكرة وكانت من أهم دواعي الإيجاز ؛ لأن الكلام الموجز أيسر حفظًا وأقرب تذكّرًا من غيره من صور الكلام ، وفي اتساع الدولة الإسلامية ، والحاجة إلى سرعة البت في أمورها ، وفي تدوين الرسائل ، وما يتطلبه ذلك التدوين من قراطيس كان الحصول عليها شاقًا.

ومن هنا كان للإيجاز سماته الخاصة في كل زمان ومكان ، سواء في الحياة الحضرية أم الحياة الصحراوية ، ومن هنا تكمن القيمة الفنية لهذا المصطلح البلاغي .

---

[١] – النابغة الذبياني لعمر الدسوقي ص ٤١ ،٤٧ .

المحور الثالث
الايجاز بين الرماني والخطيب القزويني
"موازنة"

المحور الثالث: الايجاز بين الرمانى والخطيب القزوينى "موازنة"

إذا أردنا أن نوازن بين الإمامين الرماني والخطيب في الإيجاز ، فلا بد أن نوازن بينهما في عدد من النقاط ليتضح المنهج البلاغي لكل منهما في الإيجاز ، وسأذكر هذه النقاط باختصار احتراسًا من التكرار **فيما يلي :**

أولاً : الموازنة فى الأسلوب:

كان لكل من الرماني والخطيب منهجه الخاص الذي تميز به ، كما كان لكل منهما أسلوبه الذي سار به في تناوله للإيجاز .

فأسلوب الرماني : يمتاز بأنه أسلوب سهل جميل أخَّاذ ، فهو أسلوب أدبي علمي ، تغلب عليه نزعة الأديب ، وخيال العالم الواسع الاطِّلاع ، فقد استطاع أن يُعرِّف الإيجاز بأسلوبه الدقيق ، ويسترسل في تقرير أقسامه البلاغية ، وإقامة الحجج على صحتها ، فكان يعرض الفكرة ، وخاصة السر البلاغي لإيجاز الحذف عرضًا هادئًا ، ويقلِّب الأمر على وجهه حتى يصل إلى النتيجة التي يهدف إليها بأسلوب الأديب العالم المتذوق المتمكن من ناصية البيان ، حتى كادت عباراته يحس بها كل متكلم بليغ ويجيش بأحاسيسه اتجاهها، وكان أسلوبه وسطًا بين الاختصار والإسهاب، فهو لا يميل بالاختصار إلى الإخلال ولا بالإسهاب إلى الإملال.

أما **أسلوب الخطيب** : فهو أسلوب العالم المطَّلع على أقوال السابقين ، فهو يوضح خطة البحث في الصورة البلاغية عامة وفي الإيجاز خاصة ، في أن يطَّلع الإنسان على ما كتب السابقين قبله ، ويواصل المسيرة من حيث توقفوا حتى يؤخذ برأيه ويعترف بجهده. ومن هنا جاء أسلوبه فيه شيء من الإسهاب والتفصيل من غير خلل .

ثانيًا : الموازنة فى المنهج:

سبق عند الحديث عن **الرماني** وبيان منزلته العلمية، أن بيَّنْتُ منهجه في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، وأشرت إلى سبب تأليفه لهذه الرسالة من أنه جواب عن سؤال وُجِّه إليه عن ذكر النكت في إعجاز القرآن بدون تطويل بالحجاج ، خدمة للدين والعقيدة ، فألف رسالته هذه قائلا : "إن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة " [١]. وجعل الدراسة في هذه الرسالة تقوم على إثبات الإعجاز للقرآن عن طريق البلاغة التي جعلها ثلاث طبقات . فجعل البلاغة محور الدائرة لرسالته هذه ، ومتفرعة منها ، فالبلاغة وإن كانت وجهًا واحدًا من وجوه الإعجاز إلا أنها استغرقت أكثر من ثلاثين صفحة، وبقية وجوه الإعجاز تمثل أربع صفحات فقط، مما يرجح الظن بأن الرماني قد قصد من وضع هذه الرسالة أن يجعل البلاغة محور الحديث، ومناط القول، وليس القصد من الكلام بيان الإعجاز القرآني، بل جعل الإعجاز مدخلاً ووسيلة لبلوغ الغاية التي يستهدفها. ونعني بها البلاغة وبيان أقسامها. فيكثر من الأمثلة والشرح ليقرب مفهوم أقسام البلاغة العشرة عنده، ويقنع بها الناس مع ذكر الدليل تلو

---

[١] – انظر النكت ص ٦٩ .

الدليل ويعقد الموازنات في وضوح لإثبات أن القرآن الكريم معجز في نفسه ، وأنه معجز في كل زمان ومكان ، فكان لا يطرأ إلى قسم من أقسام البلاغة العشرة إلا حللها تحليلاً دقيقًا ، مؤيدًا كلامه بالحجج النيرة والبراهين الساطعة، وساعده في ذلك ثقافته الواسعة، وخبرته الدقيقة بالأساليب الأدبية والنحوية والمنطقية والبلاغية، وذوقه الرفيع المدرب.

وبذلك استطاع أن يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن السر البلاغي لإيجاز الحذف" إنما يكمن في الخفاء والغموض الذي يجعل الذهن يفكر ويبحث عن المحذوف ، ويذهب مذاهب شتى في الحدس والتخمين ".

فكانت دراسة أقسام البلاغة في "النكت" من أروع الدراسات البلاغية ، ومن أحسن ما كتب فيها. حيث كانت له تقسيمات ونظرات صائبة ، وإحساس نفسي بدلالات التراكيب، وأثرها في النفوس، فكانت دراسته تهدف إلى استخلاص الحقيقة والوصول إليها .

فكان لكتابة " النكت في إعجاز القرآن "أثر واضح في الدراسات القرآنية والبلاغية، وأكبر دليل علي ذلك أن أبا هلال العسكري، وابن سنان، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري ، والخطيب، وغيرهم ، اتخذه أساسًا في كتبهم واهتدوا به.

فهو بحق ذو شخصية قوية مستقلة، يعرض أرائه في ثقة واطمئنان بأسلوبه الخاص الذي تميز به عن سائر العلماء .

أما الخطيب : فكان حريصًا في منهجه البلاغي على بيان فنون البلاغة بأكملها ملتمسًا بيان أقسامها عند المتأخرين، فقد بدأ بالبحث في فنون البلاغة العربية مبتدئًا بفن المعاني ثم البيان ثم البديع، وكان الخطيب واضحًا في منهجه حيث يقرر استقاءه أو اهتداءه من السابقين فقال في **مقدمة كتابه التلخيص** :

(لما كان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنَّفه الفاضل العلامة نفعًا ، لكونه أحسنها ترتيبًا وأتمها تحريرًا، وأكثرها للأصول جمعًا، ولكن كان غير مَصُون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار مفتقرًا إلى الإيضاح والتجريد، أَلَّفْتُ مختصرًا يتضمن ما فيه من قواعد ، ويشتمل على ما يُحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهدًا في تحقيقه وتهذيبه، ورتبتُه ترتيبًا أقرب تناولاً من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريبًا لتعاطيه ، وطالبًا لتسهيل فهمه على طالبيه ، وأضفتُ إلى ذلك فوائد عثرتُ في بعض كتب القوم عليها ، وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها، وسميته تلخيص المفتاح) .

وفي ذلك أيضًا يقول في فاتحة كتابه الإيضاح: (هذا كتابي في علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح وجعلتُه على ترتيب مختصري الذي سميته "تلخيص المفتاح" وبسطت فيه القول ليكون كالشَّرح له، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصلت معانيه المجملة، وعمدت إلى ما خلا منه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما فاستخرجت زبدة ذلك كله وهذَّبتها ورتبتها حتى استقرَّ كل شيء منها في محله ، وأضفت إلى ذلك ما أدَّى إليه فكري ، ولم أجده لغيري).

فكان الخطيب أمينًا على نقله من غيره من العلماء، حيث كان يعرض أقوال السابقين وآراءهم مرجحًا ما يراه صوابًا، رافضًا ما يراه خطأً، مبديًا وجهة نظره مؤيدة بالأدلة والشواهد، مستعملاً المقاييس النقدية للأدباء في تحليلهم للنصوص، وعرضهم للقضايا البلاغية. فيقرر الحقائق ويقيم عليها الأدلة والبراهين أحيانًا معتمدًا على ثقافته الواسعة.

إلا أنه لم يذكر شيئًا من اهتدائه بالرُّمَّاني في الإيجاز مما جعل صاحب عروس الأفراح يقرر هذا النقل بقوله: "واعلم أن الذي ذكره المصنف من تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف، وتقسيم اللفظ إلى إخلال وغيره ، وتقسيم زيادته إلى تطويل وغيره، تبع فيه جميعه الرماني ".

ولعل الخطيب اكتفي بذكر ابن سنان وعبد القاهر الجرجاني حيث يعلم استقاءهم من أقوال الرماني فهو يذكر اللاحق دون السابق.

واستحق كتاب الإيضاح الذي شرح وحلل فيه كتاب التلخيص بأن يوصف بأنه أثَرٌ من أَنْفَسَ في الآثار البيانية؛ لأنه خلاصة مركزة لكثير من وجوه النظر في العربية متمثلة فيما شمله من آراء السابقين. وبما فيه من آراء سديدة تدل على تبحره وسعة اطلاعه.

ثالثًا : الموازنة فى التشابه والاختلاف بينهما فى بعض موضوعات الإيجاز:

بعد أن وازنت بين الإمامين في الأسلوب، وفي المنهج البلاغي الذي ظهر في بحثيهما من خلال كتبهما، يجدر بنا أن نبين بعض ما بينهما من تشابه أو تباين في بعض الموضوعات، جاء بسبب طبيعة الإيجاز عند كل منهما، وهذه الموضوعات هي :

١) أن **الرماني** لم يعرِّف الإيجاز تعريفًا واحدًا محددًا كباقي العلماء كافة، بل عرفه بأكثر من تعريف، فبعض هذه التعريفات مترادفة، وبعضها متقارب، ويمكن أن يكون السبب في هذا؛ أنه كان في مقام الشرح والتعليم. كما أنه في تعريفه لم يحصر الإيجاز في تقليل الألفاظ فحسب، بل أشار إلى إيحاء تلك الألفاظ بمعان كثيرة تعتمل بها الأنفس، ويسبح فيها الخيال، وهذا يوافق مفهوم الإيجاز عند البلاغيين المتأخرين .

بينما استعار **القزويني** كلام السكاكي في تعريف الإيجاز بدون تعليق منه، ووافق السكاكي على عدم التفرقة بين الإيجاز والاختصار بقوله :" وأما قول بعضهم إن مراده أن الاختصار في حذف الجمل فقط بخلاف الإيجاز فلا شيء " [١].

٢) عالج **الرماني** " التفرقة بين الإيجاز والتقصير والإطناب والتطويل " علاجًا محمودًا ، وكان له الفضل في التفريق بينهم ، وجعل الفرق بينهم كالفرق بين من يسلك طريقًا بعيدًا جهلاً منه بالطريق القريب ... ثم بين أن الإيجاز بلاغة والتقصير عي ، كما أظهر أن الإطناب بلاغة و التطويل عي . بدون ذكر أمثلة توضح ذلك .

---

[١] – انظر الإيضاح ٣/ ١٧٠

بينما قرر صاحب عروس الأفراح أن **الخطيب** نقل تقسيم الرماني بقوله : "واعلم أن الذي ذكره المصنف من تقسيم الإيجاز إلى إيجاز قصر وإيجاز حذف ، وتقسيم اللفظ إلى إخلال وغيره ، وتقسيم زيادته إلى تطويل وغيره ، تبع فيه جميعه الرماني " [١]. ولكن **الخطيب** زاد على الرماني بكثرة الأمثلة لكي يمكنه التفرقة عن طريق التطبيق ، وقام بشرحها وتحليلها ، وبيان سبب الخلل فيها حتى لما اعترض عليه السعد ، بقي رأيه قويًا فيما استدل به .

٣) أظهر **الرماني** معنى جديدًا وهو أن الإيجاز يُطْلَبُ في موضعه وإن كان إطنابًا بقوله : (وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز ، وإذا كان الإطناب لا منزلة له ويحسن أكثر منه فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه ، فإطناب فيه إيجاز) .

فيكون بهذا أول من رأى أن الإطناب في مقام شكر الله وثنائه على نعمه إيجاز . وذلك لأن نعم الله لا تحصى ، ولو شكر الإنسان وحمد ربه على هذه الآلاء طيلة حياته بدون انقطاع ولا فتور ، فلم يؤد الواجب عليه نحو الشكر والثناء على تلك النعم ، فالمقام هنا يتطلب السرد في المقال ، وطول السرد في الشكر لله تعالى لا يسمى إطنابًا بل هو إيجاز وهو قمة البلاغة والبيان .

---

[١] – انظر عروس الأفراح للسبكي ٢٠٢/٣.

بينما **الخطيب** لم يتطرّق إلى هذا واكتفى بالتفرقة بين الإيجاز والإطناب ، كما أنه لم يذكر مقامات الإيجاز أو الإطناب أو المساواة ، وكان عليه أن يذكر هذه المقامات ، ولذلك كانت المساواة عنده غير محمودة وغير مذمومة كما ذكر السكاكي إنما هي في متعارف الأوساط [١].

٤) قسَّم **الرماني** الإيجاز إلى: إيجاز حذف وإيجاز قِصَر، وأضاف إلى أقوال السابقين في إيجاز الحذف بيان العلة البلاغية ، بعد أن كان العلماء يكتفون بقولهم: " إن الحذف هنا للاختصار أو للإيجاز " وسر جمال الحذف عنده يرجع إلى الخفاء والغموض ، وذهاب النفس فيه كل مذهب .

فعبارة الرماني الخاطفة الموجزة في بيان سر بلاغة الحذف ، كانت غزيرة المنال في وقتها ، ولها قيمتها البلاغية ، وقد أخذها العلماء من بعده ، ومنهم الإمام عبد القاهر الجرجاني وعقد بابًا خاصًا لإيجاز الحذف وبيان أنواعه .

بينما ذكر **الخطيب** إيجاز الحذف ولم يذد عليه شيء من بيان السر البلاغي ، إلا أنه أسهب في الأمثلة ليطبق بذلك كلام الرماني وإن لم يصرح بذلك . كما ذكر أنواع الحذف : إما حذف جزء جملة ، أو جملة ، أو أكثر من جملة . ودلل على ذلك كله بالأمثلة ، ثم تناولها بالشرح والتحليل مؤيدًا ما يقوله .

---

[١] – انظر بغية الإيضاح ١١١/٢ ،١١٢ .

٥) يرجع الفضل إلى تسمية إيجاز القِصَر إلى **الرماني** ، كما كان صاحب الموازنة المشهورة بين الكلام القرآني ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وبين حكمة العرب " القتل أنفي للقتل " ، ولخصها في أربعة مواضع ، ولم ينكر فصاحة العرب في حكمتهم .

بينما ذكر **الخطيب** هذه الموازنة وأضاف إليها ما ذكره صاحب الصناعتين وصاحب سر الفصاحة ، وصاحب الدلائل . ولخصها في ثماني نقاط .

٦) أظهر **الخطيب** – مهتديًا بمن سبقوه – أنواع الحذف وقسمه إلى نوعين : أحدهما : ألا يقام شيء مقام المحذوف . والثاني : أن يقام مقامه ما يدل عليه . ودلل على ذلك بالأمثلة ، ثم أوضح أدلة الحذف ، وذكر منها أهم ما ذكره السابقون ، وقد ذكر ذلك في موضعه خشية التكرار .

رابعًا : الموازنة فيما يتعلق بالاستشهاد:

أولاً : الاستشهاد بالنصوص القرآنية:

عندما تناول كل منهما الإيجاز بالبحث والدراسة تراه غالبًا يبرهن على رأيه فيها ببعض النصوص القرآنية ، وقد **تتفق** وجهة النظر بينهما ، وقد **تختلف** ، ومن هذه النصوص :

١- قوله تعالى : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ [١] وكانا متفقين في التعليل عليها. إلا أن الخطيب أوضح أنها من النوع الأول من الحذف وهو حذف جزء جملة وهي من حذف المضاف . بينما اكتفي الرماني ببيان السر البلاغي للحذف بصفة عامة [٢].

٢- قوله تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ عرض **الرماني** هذه الآية ليبين مزايا الإيجاز وخاصة إيجاز القِصَر فيها عن كلام العرب المأثور ، وأضاف إلى المبرد ثلاثة فروق أخرى .

أما **الخطيب** فقد عرض هذه الآية واستقصى كل ما قيل حولها ، وتناولها في ثماني نقاط ؛ لبيان أنها من الإيجاز المحمود ، ويرى أن ألفاظها على إيجازها قد عبر بها عن معنى كثير ، وذلك أن المراد بها أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتَلَ قُتِلَ قصاصًا ، كان ذلك داعيًا قويًا إلى ألاَّ يقدم على القتل ، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، فكان ارتفاع القتل حياة . فليس كل قتل ينفي القتل ، وإنما القتل

---

[١] – سورة يوسف ، آية ٨٢.

[٢] – سورة البقرة ، آية ١٧٩ .

الذي ينفيه ما كان على وجه القصاص والعدل ، ففي ذكر القصاص بيان للمعنى وكشف للغرض .

والخطيب اهتدى بهذا المعنى من ابن سنان ، ولم يضف إليه جديدًا ، وإن كان ابن سنان كان في معظم تحليلاته لهذه الآية قد سبقه بها الرماني ، وقد تبعه الخطيب في ذلك.

بينما **الرماني** قد حللها تحليلاً دقيقًا مدللاً بها على ما أراد من دقة التعبير القرآني الذي لا يستطيع البشر مهما أوتوا من بيان وفصاحة وبلاغة أن يأتوا ولو بسورة من مثله مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾ [١].

وبعد فهذا نموذج لبعض الآيات القرآنية التي ذكرها كل من الرماني والخطيب ، وإن اختلفا أحيانًا في وجهة نظر كل منهما ، إلا أننا لا ننكر فضلهما فيما قدماه للإيجاز خاصةً والبلاغة العربية عامة .

وهناك بعض الآيات انفرد كل منهما بها وقاما بشرحها وتحليلها على أتم وجه ، إلا أن الخطيب أكثر من هذه الشواهد عما ذكره الرماني .

---

[١] – سورة البقرة ، آية ٢٣ .

ثانيًا : الاستشهاد بالأحاديث النبوية

كذلك نرى أن كلاً منهما يستشهد في بعض مسائل الإيجاز بالنصوص النبوية ، إلا أنها قليلة جدًا عندهم .

ثالثًا : الاستشهاد بالنصوص العربية

أما استشهاد الإمامين : الرماني والخطيب بالنصوص العربية شعرًا ونثرًا ، فنجد أن استشهاد **الرماني** بالنثر يكاد يكون قليلاً إلا من الحكمة العربية " القتل أنفى من القتل " ، أما **الخطيب** فقد استدل في غير موضع بكلام العرب المأثور كل في موضعه.

أما استشهاد الإمامين بالنصوص الشعرية ، **فالرماني** جاء كلامه في الإيجاز خاليًا من الأشعار ، بخلاف **الخطيب** فالاستشهاد بالشعر يكثر عنده فهو يسوق الأبيات تلو الأبيات وحظي الكثير منها بالتحليل .

وبعد ، فيمكن القول –بصفة عامة – إن **الخطيب** عندما كان يستشهد بالشعر العربي على توضيح وجهة نظره في الإيجاز يكون أكثر إيرادًا للشواهد ، كما يكون أكثر دقة وتحليلاً لها من الرماني .

كما يلاحظ أن **الرماني** كان يعتمد كثيرًا في شواهده على آيات الذكر الحكيم ، وكان يعتمد في تحليلاته وطريقة معالجته للنصوص القرآنية على إظهار السر البلاغي في الإيجاز بنوعية ، وكان هذا قد استحوذ على كل تفكيره في موضوع الإيجاز ، كما كان للذوق عنده اعتبار خاص عند معالجته لهذه النصوص .

أما **الخطيب** فكان يعتمد أيضًا في طريقة معالجته للنصوص على التذوق ، إلا أنه لم يكن معتمدًا عليها كثيرًا مثلما فعل الرماني ؛ لأن الخطيب اعتمد بطريقة أوضح في معالجة الإيجاز من حيث بيان أقسامه وأنواعة وبيان أدلة الحذف ، جاريًا على التقسيمات التي سادت في عصره .

الخاتمة

الخاتمة

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا ولاَ تُحمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْ َقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ { البقرة : ٢٨٦ } .

وبعد...

فإلى هنا تنتهي هذه الرحلة الطيبة مع الإمامين الرُّمَّانِي والخطيب وغيرهما من البلاغيين الذين ورد ذكرهم في هذا البحث ، أرجو أن أكون قد أحسنت صحبتهم ، وعرفت لهم أقدارهم ، والتزمت معهم مبادئ الحوار والمناقشة . فقد كان هدفي كما قلت من قبل هو محاولة الاهتداء إلى وجه الحق والثواب .

ونذكر كلمة موجزة تعتمد على فهم قائم في يقيننا ، من أن النظرة الموضوعية في الدراسات الإنسانية ، تحتاج إلى معاودة نظر ، مرتبطة بنضج معارف الباحث ، والتفاته إلى معنى تزاوج الثقافات العالمية مع ثقافته القومية ؛ لهذا فإن أي بحث في نظر صاحبه يبقى الأمل المرجو في الدنو من استقامة المنهج ، وصحة المضمون ، وإن كان في نظر غيره يحتاج إلى أمور وأمور ، ولذلك ، كان هذا البحث في نظرنا يمثل الجهد المستقصى ، وذلك لأن البلاغة من العلوم التي لم تنضج ولم تحترق ، ولذا فهي بحاجة إلى درس مستمر يقربها من أذهان معاصريها .

وهذا شرح مفصل لإيجاز عند الرُّمَّانيّ والخطيب ، توخيت فيه عمق البحث ودقة التحليل ، والعناية بمسائله وحل بعض المشكلات ، وأومأت فيه إلى شتى المراجع والمصادر ليكون جامعًا لمسائل الإيجاز ومصدرًا للدراسات العالية فيها.

والله يعلم مقدار ما أخذ مني من جهد، وبحث ومراجعة . وصعوبة البحث لا تقف عند حدود الجمع بل تمتد هذه الصعوبة إلى الفترة الزمنية المحددة لإخراج هذا البحث.

وما نستنتجه من هذا البحث أن هذين العالمين كانا على قدر وافٍ من الإسهام في تطور الإيجاز ، فالرماني وقف شامخًا في القرن الرابع الهجري ليهدى لنا بيان السر البلاغي لإيجاز الحذف، حيث أبرز الجانب النفسي الذي أدى إليه الحذف، ويعني هذا أنه ليس كل حذف عنده يكون من باب إيجاز الحذف كما كانوا يقولون سابقًا ، ولكن إيجاز الحذف عنده ما دل على معانٍ كثيرة توحي من السياق بحيث لو ذكر المحذوف لأخل بهذه الإيحاءات. فكانت لفتة منه مبتكرة ومشكور عليها .

كما أهدى لنا تسمية إيجاز القِصَر ، وأهدى لكل أديب وبليغ تلك الموازنة الخلابة التي كان قائدها في مجال الدراسات البلاغية والنقدية، والتي يعتبرها كل غواص يغوص في سماء البلاغة القرآنية آلة الغوص، التي تنجيه من الغرق في أعماق اللغة . كما كانت له شخصيته المتميزة عندما فرق بين الإيجاز والتقصير والإطناب والتطويل . ولا نغالي إذا قلنا : إن بصماته ما زالت واضحة المعالم باهرة الضياء إلى يومنا هذا . رحم الله هذا العالم الجليل وأدخله فسيح جناته .

كما أهدى لنا الخطيب القزويني كتابيه " التلخيص " والإيضاح " وكان فهمًا ذكيًّا فصيحًا مفوهًا في تناوله لمسائل الإيجاز فيهما ، فلم يكن مترجمًا لما قيل بل كانت له شخصيته المتميزة في طريقة العرض ، فجمع بين طورين هامين في تاريخ البلاغة العربية وهما : طور الذوق الأدبي ، وطور التقسيم العقلي . ومن هنا اعتبر بعض البلاغيين المحدثين [١] أن الصورة البلاغية قد اكتملت عند القزويني ، ومن جاء بعده لقوله : " هم يشيرون إلى ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، فنفهم من هذا الضبط والحصر صورة البحث البلاغي عندهم ، ومن هنا نقرأ قول القزويني في تلخيصه : مقام الإيجاز يباين مقام خلافه ، .. ولكل كلمة مع صاحبتها مقام .

فبعد السكاكي نشط البلاغيون ومنهم القزويني في بيان مباحث البلاغة العربية ، وبنوها على ثلاثة علوم – معانٍ – بيان – بديع – ولا يزال هذا التقسيم هو المتعارف عليه حتى الآن بين الدارسين للبلاغة العربية ، فالقزويني استفاد من بعض تقسيمات السكاكي وبمن جاء قبله وبعده ، ولهذا لا يوجد جديد إلا على أساس أصيل من قديم موروث يؤخذ خير ما فيه أساسًا ، وإنما لجديد اليوم .. والمعاصر لا تكن بالزمن وحده . وإنما تكون بالمضمون الفكري الناضج والذوق الأدبي الخالد .

وفي هذا البحث نلاحظ أثرًا كبيرًا لعقد الصلة بين الصورة البلاغية عند القدامى والمحدثين الذي دفعنا إلى هذا القول هو ما ورد في ثنايا كتابي " التلخيص والإيضاح " من جمع للآراء، والموازنة بينها، واختيار أفضلها، ومناقشة أغلبها، ثم شرحها والتعليق عليها، وهذه الجهود قد سبق القزويني إلى بعضها، كما ورد في البحث، وبعضها قد كان جديدًا في عرضه لها، وتقسيمه لفنونها، وبعضها كان توفيقًا بين الجمع والجدة . وإذا سبق القزويني في أرائه البلاغية، فيكفيه أنه اختار، وأحسن الاختيار في أمثلته، وشرح ووضح الغامض من كلام السكاكي وغيره من البلاغيين العرب، وعرض الإيجاز عرضًا يرضى عنه صاحب الفكرة والذوق ، وهذا الشرح والاختيار والموازنة بين الآراء والإدلاء برأيه يجعله في عداد النقاد، إذ المهم في الناقد روحه ومنهجه، وذوقه قبل آرائه. ويمكننا القول أن الإيجاز يعتبر جاء عند القزويني بصورته النهائية والتي لا يحتاج إلى شيء بعدها وإن كان لم يضف له شيئًا إلا الشرح والتعليل وهذه هي البلاغة التذوقية والنقدية، بخلاف باقي فنون البلاغة العربية وخاصة فن البديع فقد أضاف فيه القزويني كل جديد يذكر . رحم الله هذا القاضي المفوه ، والخطيب الخليل ، وأدخله فسيح جناته .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت

مصادر البحث ومراجعه

واهم مصادر البحث ومراجعه

أولاً : القرآن الكريم .

ثانيًا : من كتب الحديث الشرف : صحيح مسلم – ط الشعب – .

ثالثًا : المطبوعات :

١- أثر النحاة في البحث البلاغي – د/ عبد القادر حسين– دار نهضة مصر.

٢- أدب الكاتب – ابن قتبية – التجارية .

٣- استدراكات السعد على الخطيب في المطول د/ أحمد هنداوي ط وهبة .

٤- الإشارات والتنبيهات –الجرجاني – تحقيق د/ عبد القادر حسين .

٥- الأطول – العصام –ط الآستانة – ١٢٨٤ .

٦- الإمتاع والمؤانسة – أبو حيان التوحيدي – بيروت ١٩٦٩ .

٧- الإيضاح – الخطيب القزويني – تحقيق د/ عبد الحميد الهنداوي مؤسسة المختار

٨- الإيضاح – الخطيب القزويني – تعليق محمد عبد المنعم خفاجي مكتبة الحسين التجارية ١٣٤٨ .

٩- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح – عبد المتعال الصعيدى – مطبعة صبيح.

١٠- بغية الوعاة – السيوطي – مطبعة عيسى الحلبي ط ١ " ١٣٨٤ هـ " .

١١- البلاغة – المبرد – الشعب .

١٢- البلاغة تطور وتاريخ – شوقي ضيف – دار المعارف ١٩٦٥.

١٣- البلاغة الواضحة – على الجارم – .

١٤- البيان القرآني عند الجاحظ – د/ هاشم محمد هاشم – .
١٥- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون – دار الفكر – بيروت ط
١٦- تاريخ البلاغة – البغدادي – السعادة .
١٧- تاريخ علوم البلاغة – المراغي – مصطفى الحلبي ١٩٥٠ .
١٨- تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – تحقيق الأستاذ صقر
١٩- تلخيص المفتاح – الخطيب القزويني – دار إحياء الكتب العربية الحلبي.
٢٠- حاشية – عبد الحكيم السيالكوتي – على المطول مطبعة مدرسة والدة عباس الأول – ١٣٢٤ – مع فيض الفتاح .
٢١- حاشية الشيخ المنياوي على شرح الدمنهوري لمتن الجوهر المكنون – مطبعة دار إحياء الكتب – عيس الحلبي .
٢٢- الحيوان – الجاحظ – مصطفى الحلبي ١٩٤٧ .
٢٣- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى مكتبة وهبة ط ٢ ١٩٨٠م .
٢٤- دفاع عن البلاغة – الزيات – الاستقامة ط ٢ .
٢٥- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – المنار ط ٥ .
٢٦- سر الفصاحة – ابن سنان – تحقيق عبد الواحد شعلان دار قباء .
٢٧- شروح التلخيص طبعة بيروت .
٢٨- الشعر والشعراء – ابن قتيبة – دار المعارف .
٢٩- الصناعتين – أبو هلال العسكري – عيسى الحلبي ١٩٥٢ .
٣٠- الطراز – العلوي – المقتطف ١٩٣٤ م .
٣١- عقود الجمان – السيوطي – مصطفى الحلبي .

٣٢- علم المعاني – د/ بسيوني عبد الفتاح فيود – .
٣٣- علم المعاني – د/ درويش الجندي – نهضة مصر ط ٢ .
٣٤- علوم البلاغة – المراغي – دار الآفاق .
٣٥- القاموس المحيط – الفيروز آبادي – .
٣٦- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي – د/ بدوى طبانة – .
٣٧- الكتاب – سيبويه – الأميرية .
٣٨- الكشاف – الزمخشري – الاستقامة ط٢ .
٣٩- لسان العرب – ابن منظور – ط دار الحديث .
٤٠- ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد– المبرد– السلفية ١٣٥٠هـ
٤١- المثل السائر لابن الأثير تحقيق د/ أحمد الحوفي ط ٢
٤٢- المطول – سعد الدين التفتازاني – ١٣٣٠ هـ .
٤٣- مفتاح العلوم – السكاكي – مصطفى الحلبي .
٤٤- النابغة الذبياني – عمر الدسوقي – دار الفكر العربي .
٤٥- النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز .
٤٦- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني تحقيق د / محمد خلف الله أحمد ، د/ محمد زغلول سلام .
٤٧- وفيات الأعيان – لابن خلكان تحقيق احسان عباس ط دار صادر بيروت .